إنّ الروح التي بثّها في الجيش العثمانيّ أجمع صاحب الدّولة أنور باشا وكيل القائد الأعظم وناظر الحربيّة قد كان أثرها عظيماً جدّاً في هذا الجيش الرابع أيضاً إذ وجد لها مثل أحمد جمال باشا عالماً عاملاً يطبّقها ويزيد ما يرى الحاجة المحلّيّة ماسّةً إليه من الأعمال الخطيرة ومن أهمّ دواعي النجاح أنّ جمال هذا الجيش لم يتقيّد بحرفيّة القانون بل اهتمّ بجوهره وإذ كان مفطوراً على حبّ العمران جاءت على يديه مثل هذه الصناعات ونفّذ رغائبه في ذلك أناسٌ أكفاء اختارهم للعمل فبرزوا فيه وأدركوا أسراره وخوافيه .

يعدّ الجيش اليوم المدرسة العادليّة أكبر مدارس الشّافعية في القرون الوسطى بدمشق ليأوي إليها ثلاثمائة وخمسون طالباً من طلاّب الصناعات في الجيش في هذا السبيل ألفاً وخمسمائة ليرة لتكون صالحةً لسكناهم ويعيشون فيها عيشاً منتظماً تجود به صحّتهم وتفتح قرائحهم وتصير أيديهم مرنةً حاذقة وعقولهم مفكّرةً مدبّرةً.

وهذا العدد من الطلاّب إذا أضيف إليه ألوف الصنّاع الذين يعملون في مصانع الجيش اليوم يغنون ولا شكّ البلاد بمصنوعاتهم في كل فرعٍ من فروع الصّناعة ويكون ذلك من بعض حسنات القائد العامّ أحمد جمال باشا ومضاء رجال الإدارة مثل مفتّش المترل كاظم بيك الذي له فضلٌ عظيمٌ في تنظيم هذه الصناعات وغرامٌ شديد بتخريج أبناء الوطن على حبّها .

أنا والشّلال

قالت: عهدتك لا تهاب مُلمّةً ... ما لي أراك جزعت من شلاّلِ

ولّيت عنه وكنت تعشق قربه ... ولربّما ولّى المحِبُّ السّالي

يا نفس حسبك أن ترومي والهاً ... بها والطبيعة دائم البلبالِ

إني لأعشق كلّ غصنٍ يلتوي ... وأحنّ من طرب السلسالِ
يهتاجني العصفور وهو مصوِّتٌ ... يدعو ذويه إلى ارتشاف الزّلالِ
ويروقني الجبل الرَّفيع كأنّما ... هو طامعٌ من جوّه بنوالِ
إني لَيَشغفني هوىً وصبابةً ... نبتٌ بجانب جدولٍ سيّالِ
عبثت به أيدي النّسيم فأوّدت ... أعطافه فاهتزّ غير مبالِ
ويروقني الشّلاّل منحدراً هوى ... نحو البسيطة من أشمَّ عالِ
يغلي كأنّ النار بين ضلوعه ... ويثور مندفعاً إلى الأدغال
شابت غدائره فأرسلها على ... وجه الرّمال وهمّ بالإعوال
ولقد دنوت مقبِّلاً قطراته ... فرميت من قطراته بنبالي
شلاّلٌ ويحك أنت مثلي في الهوى ... أو لم تُشبكِ قوارع الأهوال
وعلامَ تدفعني وأنت معربدٌ ... خفّف عليك فأنت من أمثالي
أشكو وتشكو الحادثات وإنّما ... هي علّة الإدبار والإقبال
تابعتُ في القمم المسير فلم يرُق ... للنّائبات سراكِ في الأجبال
واليت خطوَكِ هادئاً فتمثّلت ... لكِ في السّبيل فعدت غير موالِ
صدّتكَ عن حيث ابتغيتَ عوائقٌ ... حاولن بي صدّاً عن الآمالِ
فهوَيتَ من علٍ هائجاً، ولبثتُ لا ... متململاً، والكارثات حيالي
هلاّ صبّرتَ كما صبّرتُ فإنّه ... بالصّبر يُدفع فاجئ الأجوالِ

(الزِّركلي)

الوافي بالوفيّات